

التاريخ في سبر أعلموس :

## ملتن...

[ الفيتارة الخالدة التي غنت أروع  
أناشيد الجلال والحرية والخيال ... ]

للاستاذ محمود الخفيف

- ١٤ -

—&gt;&gt;&gt;&lt;&lt;&lt;—

بين الطغيان والحرية :

ترى جيمس في اسكتلندة تربية بروتستنتية إلا أن هواه كان مع الكاثوليك ، ولم يك ذلك بدافع العقيدة فما كان يوماً مثله بمقيدة ، وإنما كان بدافع الرغبة في الاستناد إلى الكنيسة كدعامة من دعائم الاستبداد .

وكان البيوريتانز قد تزايد عددهم في البلاد حتى أصبحوا قوة عظيمة ، وكان هؤلاء خارجون على كنيسة إنجلترا لأنها كاثوليكية العقيدة ، وإن كانت رياستها ملك إنجلترا منذ فصلها عنى الثامن عن رياسة روما .

وقد كان هؤلاء البيوريتانز عند نشأتهم كما رأينا فريقاً من قساوسة الكنيسة الإنجليزية ولكنهم في الواقع أصبحوا يعدون من البروتستانت في ميولهم ومبادئهم ورغبتهم في الإصلاح وإن أطلق عليهم اسم خاص بهم ؛ وطمع كل من الكاثوليك المتشيعين لروما والبيوريتانز أن ينالوا عطف جيمس . أما طمع الكاثوليك فلأنه ابن ماري الكاثوليكية ملكة اسكتلندة ، وأما طمع البيوريتانز فلأنه تربى تربية بروتستنتية في اسكتلندة وفق الكنيسة البرسبتيرية<sup>(١)</sup> ، ولكنهم جميعاً ما لبثوا إلا قليلاً حتى رأوه يميل إلى نظام كنيسة الدولة كما نشأت في عهد هنرى الثامن وتوطدت في عهد إليزابيث .

واجتمع سنة ١٦٠٤ مؤتمر من قساوسة الكنيسة ، ويمثل البيوريتانز بنية الغمام على حل ، ولكن ثلثائة من البيوريتانز آثروا اعتزال مناصبهم على الاعتراف بكتاب الصلاة الذي تقره كنيسة الدولة . وأعلن جيمس كلمته الشهيرة يومئذ التي أفصح

(١) كانت هذه الكنيسة تدير وفق نظام كلفن فلا تجعل الرياسة الدينية فيها أوفى فروعها لرجال الدين وحدهم ، بل يختار الناس من غير القساوسة عبداً يشارك هؤلاء في إدارة شؤونها .

بها عن رغبته في التمسك بالنظام الأسقي في رياسة الكنيسة وفروعها وهي قوله : « إن لم يوجد القس فلن يوجد الملك » ؛ وتهدد البيوريتانز بطردهم من المملكة إن لم يذعنوا له .

وكان أعضاء البرلمان يميلون إلى البيوريتانية فاشتد غضب أشياخ روما عليهم ، كما أنهم غضبوا على الملك لتمسكه بنظام كنيسة الدولة فدبروا مؤامرتهم الشهيرة بمؤامرة البارود لنسف البرلمان والملك جميعاً ، ولكن مؤامرتهم أحبطت إذ نجا خبرها إلى الحكومة ، وأزيل البارود والفتائل من تحت البناء ولاقى المؤتمرون نكال الملك جزاء بما أجروا ، وحق بهم سوء ما مكروا فسف ما بق لديهم من البارود عدداً منهم ، وأصبح أشياخ روما موضع سخط الناس جميعاً وكراهمهم وظل الناس زمناً طويلاً لا يعلمون بحادثة منكورة إلا ردوها إليهم ، وظل السذج من العامة ينسبون كل شر يقع مهما كانت صورته إليهم ، ولا يزال بعض القرويين حتى اليوم يحرقون تمثالاً رمزياً للبابا في ذكرى هذا الحادث من كل عام .

وعظم ميل الناس إلى البيوريتانية بقدر ما اشتد سخطهم على الكاثوليك ، ولكن القساوسة على الرغم من ذلك يوحون إلى الملك اضطهاد البيوريتانز والمطف على الكاثوليك من أتباع الكنيسة الإنجليزية ، والتمسك بالنظام الأسقي ، وأصبح هؤلاء القساوسة في نظر البيوريتانز وأنصار الحرية الفكرية جميعاً رمز التعصب الأحمق والاستبداد النقي ، لا يدرون أهم أم الملك أحق منهم بالقت والازدراء ؛ وكان كلما اشتد سخط الشعب على الأساقفة ازداد عطف الملك عليهم وحباهم بالمودة والرعاية البالغ في التمكين لهم في سلطتهم وتنفيذ ما يشيرون به يكيد بذلك لخالفه ويشرح صدور مؤيديه .

وتناصر على الملك وحزبه البرلمان والبيوريتانز ، وما زالت هاتان القوتان تعملان على مناوأة في ثبات ويقين حتى أدركه الموت سنة ١٦٢٥ ، وخلف لابنه شارل الأول العرش والثورة معاً ، وسوف تكون البيوريتانية في عهده أشد خطراً عليه من النزاع الدستوري بينه وبين البرلمان .

واستوى على عرش إنجلترا شارل الأول ، وكان في الخامسة والعشرين من عمره ، وكان شارل على الضد من أبيه في خلقه فلم يعرف التبذل والاهو ، بل كان ملكاً من جميع أقطاره يملأ النفوس هيبة باحتشامه ووقاره ، ولم يك ضعيف المزجة ولا خواراً ولا أدرعن الكلم ولا ثنائراً ؛ بيد أنه لم يتوافر له من الثقافة بقدر

اسبانيا قاعة ؛ وأرسل شارل حملة بحرية لمساعدة البروتستانت الفرنسيين ( الهيجونون ) في لاروشل ، وكانت قيادتها لكنجهام وباءت بالفشل ، فازداد الناس سخطا عليه وعلى الملك ، وراح الملك يجمع القرض الجبرى بكل ما فى وسع من عنف حتى لقد اتى بنحو ثمانين من العلية فى السجن ممن حذوا حذو هبدن ، أما العامة فكان الجسد جزءا من يتمتع أو الحشد فى صفوف الجيش أو فى سفن الأسطول ، ولم يغن عن الملك بطشه قفل المال فى يديه وأيقن أن لا بد من دعوة برلمان ومهد السبيل لذلك بإطلاق من سجن ، كما أنه طمع أن يكتسب بذلك مودة الشعب واجتمع البرلمان الثالث سنة ١٦٢٨ فافترض حاجة الملك إلى عونه وعاد إلى اتهام لكنجهام ، ونحرج الأمر بينه وبين الملك . ثم أعد النواب ملتصا سموه ملتص الحقوقي ، وأعلنوا استعدادهم لإجابة الملك إلى بغيته من المال إذا أجابهم إلى ذلك الملتص ، ووافق الملك فأجابوه إلى ما أراد ، ونص الملتص على أنه لا يحق للملك فرض ضريبة إلا بموافقة البرلمان ، وألا يسجن أى شخص إلا وفق القانون ، وألا يعمل الجند عائلة على الناس ، وألا يلبسوا إلى الأحكام العسكرية بدل القانون العام ، وهذا الملتص مستمد فى روحه من العهد الأعظم ، وبعد بعده الوثيقة الثانية لحقوق الإنجليز وحررياتهم .

على أن أشد ما استاء منه الناس هو مسلك الملك يومئذ فى سياسته الدينية . أظهر شارل من أول الأمر ميله إلى نظام الكنيسة الإنجليزية ، ومع أنه لم يك كاثوليكية وفق مذهب روما فإنه كان يكره البيوريتانز كرها شديداً ويخاف من تزايد عددهم ويشك فى دعوتهم الإصلاحية وبراها ضرباً من التطرف لا مبرر له ويميل بالرجوع بالدين إلى مظهره الكاثوليكي القديم .

وحدث أثناء إجازة البرلمان أن قرب الملك إليه أحد رجال الدين وهو وليام لود ورفاه أسقفا للندن ، وأخذ يعمل بما يشير عليه به ، وكان لود من أشد أعداء البيوريتانز ، وكان هؤلاء يمتقونه أشد المقت لمصيبة لنظام الكنيسة الإنجليزية ووليه الفطرى إلى الاستبداد بالراى والقسوة فى معاملة خصومه واضيق تفكيره وفضالته ، وغلظ قلبه ، فلما قرب الملك إليه ، عد البيوريتانز عمل الملك نذرا لهم فأجموا أمرهم بينهم على مقاومته ومعاودة لود وممالأة البرلمان عليهما ، وأصبح البيوريتانز من أكبر الملتصحين فى طلب الحرية السياسية ، فعلى فضلا عن كونها من مبادئ مذهبهم تمدنى رأيهم الآن طريق الخلاص من ولهم لود أسقف لندن خصمهم المنيد .

ما توافر لأبيه منها . وكان البرلمان قد مرن على أساليب المعارضة والمقاومة فى عهد جيمس ، فلم يك أمام شارل إلا طريقا واحدا هو مسالته ، ولكنه تنكب هذا الطريق ، وبالغ فى إعانت البرلمان وأسرف فى تمسكه بالحق الإلهى المزعوم ، وأصبحت سياسته تنحصر فى مقاومة الراى العام حتى مل الناس ، وأصبحوا لا يحفلون رضا أو غضبه .

لم يكد يجتمع أول برلمان فى السنة الأولى من حكمه حتى دب الخلاف بينه وبينه ، وذلك أن البرلمان لم يمنحه المال إلا بقدر حتى يظل محتاجا إليه فلا يحله ، كما أن البرلمان لم يعتمد له ضريبة التجارة إلا لسنة وكانت للملك طول حياته ، وكانت الحرب قاعة بينه وبين اسبانيا فكانت حاجة الملك إلى المال شديدة ، وأمدت إنجلترا فرنسا ببعض سفنها لتغذف بها اسبانيا ولكن فرنسا قذفت بها البروتستانت فى أرضها حيث تحصنوا فى ميناء لاروشل فغضب البرلمان وما زال ينتقد سياسة الملك حتى ضاق به الملك فخله .

ولكنه دعا برلمانا جديدا فى السنة التالية أى سنة ١٦٢٦ فاشتراط هذا البرلمان أن يزيل الملك أسباب ما يشكو الناس منه وإذ ذاك يجيبه فى سخاء إلى ما يطلب من المال . واتهم البرلمان لورد لكنجهام توطئة لحا كته أمام اللوردات ، وكان أقرب المقربين إلى شارل ، وكان لكنجهام هوفلير أحد أصفاء آبيه جيمس من قبله ، وكان يمتد الناس أنه هو الذى يوحى إلى الملك الطغيان ويدفعه إلى محاربة البرلمان ، واستشاط الملك غضبا وأمر بالمحرضين على ذلك فألقى بهم فى السجن ، وامتنع البرلمان عن العمل حتى يطلق الملك سراحهم ، وأعلن ألا يجبى ضريبة التجارة إلا بموافقة البرلمان ، وأذعن الملك فأطلق المحرضين ، ولكن البرلمان عاد إلى اتهام لكنجهام فلم يطق الملك صبرا ، وتخلص منه بحله .

وعمد الملك إلى فرض قرض جبرى لمواجهة الحرب وأخذ فى جمعه بالقوة ، وكان يرسل إلى السجن من يرفض أن يدفع ، وكان ممن دخل السجن بسبب الامتناع جون هبدن أحد زعماء البرلمان وقد أمر على امتناعه مملنا فى صراحة وجراة أن الملك لا يملك فرض مثل هذا القرض ، وزاد على ذلك قوله «إن العهد الأعظم ينبغى أن يقرأ مرتين كل سنة فى وجه من يخرجون عليه » . واشتدت الصائفة بالملك ، فقد ساقته حماقة إلى خلاف بينه وبين فرنسا وانقلب الخلاف إلى حرب وما تزال الحرب بينه وبين